الحكاية الشعبية للأطفال..
مصدرًا للقيم..!!

عبده الزرَّاع *

مقدمة:

تعدُّ الثقافة الشعبية أحد أهم الروافد التي تعتني بالطفل، وتحتفي به وتنمي قدراته الجسمانية والعقلية، وتبثُّ فيه مفاهيم تربوية، تعمل على تقويمه سلوكيًا وأخلاقيًا (...) فالحكاية الشعبية واحدة من أثرَى العناصر الفلكلورية التي تحقق المتعة والتسلية للأطفال [١].

وقد ارتبطت قصص الأطفال بالحكايات الشعبية ارتباطًا وثيقًا منذ القِدم؛ لأنها كانت المصدر الرئيس الذي نهل منه كُتاب الأطفال على مر التاريخ، قبل أن يكون هناك تأليفٌ خاصٌّ لقصص الأطفال بعشرات السنين، فهي "المادة الخام" – إن جاز لنا أن نسميها – التي شكَّل منها كُتاب الأطفال معظم قصصهم وحكاياتهم حسب رؤية كل منهم وثقافته، وقدرته على صياغة قصة مشوِّقة وجاذبة لعقل ووجدان الطفل، حيث توافر في هذه الحكايات مُقوِّمات نجاح القصة لغناها بعناصر التشويق، والإثارة، وتأججها بالصراع، والبطولات، وتغليب الخير دائمًا على الشر في النهاية، وما تحمل من قيَم سامية مثل قيم البطولة والشجاعة والإقدام، وقيم الحفاظ على الهُويَّة، وقيم العدل، والرحمة، ونصرة المظلوم، وغيرها من القيم الإيجابية التي تتفق وعاداتنا وتقاليدنا ومعتقداتنا.

وكان كتاب "ألف ليلة وليلة" باعتباره أقدم كتاب قصصي في العالم، أفاد منه كُتاب الأطفال، وأعادوا صياغة قصصة بما يتناسب وأفكارهم الجديدة والتي تناسب الطفل الذي كُتبت له، فرأينا الحكايات الخرافية للفرنسي "لافونتين" التي استفاد في كتابتها من "ألف ليلة وليلة"، التي أخذت شهرة كبيرة، وكانت مصدرًا لكُتاب الطفل العربى؛ إذ تأثر بها الشاعر المصري محمد عثمان

* شاعر وكاتب وباحث في ثقافة الطفل – مصر.

جلال في القرن التاسع عشر، وصاغ منها مائتَيْ قصة شعرية، ضمَّها كتابه الأشهر "العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ"، ثم جاء من بعده أمير الشعراء أحمد شوقي، الذي تأثر أيضًا بحكايات "لافونتين" وكتب على غرارها حكاياته الشعرية للأطفال، والتي كانت بمثابة فتحٍ جديدٍ في مجال الكتابة الشعرية والقصصية للأطفال.

ولا ننسى رائد أدب الأطفال كامل كيلاني الذي اعتمد أيضا في بدايته على النهل من حكايات كتاب "ألف ليلة وليلة" قبل أن يؤلف خصيصًا لهم، فكتب قصص "السندباد البحري" و"عبد الله البري" و"عبد الله البحري" و"علي بابا والأربعين حرامي"، وغيرها الكثير.

ثم استفاد أيضًا كُتاب الأطفال من كتب الحكايات الشعبية، مثل كتاب "كليلة ودمنة"، والحكايات المتواترة في بطون الكتب العربية، وغيرها.

- الحكاية الشعبية:

"هذا العنصر الشعبي، أو المأثور الشعبي، يعدُّ من المأثورات الشعبية التي لها وضع خاص في المجتمعات المصرية، وبالذات المجتمع الريفي أو القروي، ممثلًا في عاداته وفنونه وخبراته اليومية والمتوارثة.. والبيت هو المكان الذي يكاد يكون ملتقًى رسميًا للحكي أو القص كما كان في الماضى القريب والبعيد، حينما كانت الحكاية هي الوسيلة الوحيدة التي تجمع الأسرة كل ليلة قبل النوم وبخاصةٍ الأطفال والصبية، لقد كادت أن تكون الحكاية بمثابة المادة العلمية التي يتعلمها أو يتلقاها الأطفال وهم في سن مبكرة، والأم أو الجَدَّة أو الأب وهو المعلم أو المدرس والمُربِّي، والبيت هو المدرسة والمعهد والكلية والجامعة.

تعدُّ الحكاية الشعبية هي تأصيلًا حقيقيًا للشخصية المصرية؛ لأن فيها مزاجه النفسي والفكري والعقائدي، يبرز من خلالها عاداته وسلوكه التي اكتسبها من خبرة الآباء والأمهات نتيجة أفعال أجيال سابقة، امتدت إلى جيله الحالي (...). والحكايات الشعبية تكاد أيضًا أن تمثل كل طموحات ورغبات الراوي تأكيدًا على إبراز التشابه وتربيته وعشقه للأرض التي وجد نفسه يحيا عليها، ويطعَم من خيراتها، ويشرب من مائها؛ وبالتالي اكتسب صفات هذا العشق والحب، فكانت فيه صفات الكرم والشهامة، وحب الوطن والأرض والتديُّن حيث الإيمان المتعمق منذ القِدم" [٢].

والحكايات الشعبية كثيرة ومتنوعة تنوعًا ثريًا، "ذلك التنوع الذي يمتد عبر الحكي عن الظواهر

الطبيعية وما خلفها من قوًى غيبية عرفها الإنسان القديم بعالم الآلهة الذي تمتلئ به الأساطير، ثم الحكي عن بطولات ومغامرات الشعوب، تلك البطولات والمغامرات التي حاولت الشعوب أن تحمِّلها كل أحلامها وآمالها ومعاناتها في دروس تحمل بين طيَّاتها معاني الإصرار والإرادة أو الصمود، أمام تقلُّبات الطبيعة والنفس البشرية؛ مما يخلق المُثل العليا للمجتمعات المتجاورة، أو رحلتهم مع الحياة ذاتها وإشكالياتها المتعاقبة، وهكذا جاءت سيَر الشعوب وملاحمها.

كما عرفت الشعوب أيضًا في تراثها الأدبي حكايات الحيوان، وحكايات الخوارق، تلك الحكايات التي كانت الأصل في تفسير الظواهر حتى قبل أن تعرف المجتمعات الأساطير، بل هي أصل الأساطير إن صح القول.

كما أفرزت روح المرح التي تفاعلت مع مخيلة الشعوب ذلك الحكي القصير الفَكِه الجزل من ألغاز ونوادر، يتفاكهون بها على أنفسهم في معظم الأحيان، ويتندَّرون بها على أصحاب القيم التي يرفضها عرف الجماعة، ثم تحولت في النهاية إلى وسيلة من وسائل تزجية أوقات الفراغ واختبار القدرات العقلية في بعض الأحيان.

هذه الأشكال من السرد القصصي والتي عرفتها الشعوب هي أشكال تمتاز بالعراقة، فهي إرث عبر الأجيال لا تنتسب للحظة تاريخية معينة يمكن إرجاع إبداعها إلى هذه اللحظة، كما أنها في تواترها الشفاهي عبر الأجيال والأشخاص تنتقل بحُريَّة دون قيود إلا المحافظة على جوهر ما تتضمنه من قيَم ومعارف، وخاضعة في الوقت نفسه لعوامل التطور بالحذف أو الإضافة تبعًا لمتطلبات الجماعة وقت القَصّ، وهكذا ما يسمونه بالمرونة، تلك المرونة التي حافظت على استمراريتها وبقائها عبر رحلة الإنسان على الأرض [٣].

- الحكاية الشعبية كمصدر لقصص الأطفال:

ظلت الحكاية الشعبية مصدرًا أساسيًا ومُهمًا من مصادر قصص الأطفال، وألهمت معظم كُتاب الأطفال على مستوى العالم، فكتب أندرسون الدنماركي حكاياته الخرافية للأطفال مستلمة من الحكايات الشعبية الدنماركية وحكايات ألف ليلة وليلة، التي كان يحكيها له والده صانع الدُّمَى، واستفاد كُتَّاب الأطفال أيضًا من كتاب "حكايات البيت الألمانية"، وهي الحكايات الشعبية الألمانية التي كانت تحكيها الجدَّات للأطفال الصغار داخل البيوت جمعها وصنفها الأخوان جريم، وتُرجمت إلى العديد من لغات العالم؛ لذا فإن "الحكايات الشعبية رافقت الشعوب في نشأتها

الأولى، حيث نجد أن أدب الأطفال يرافق الإنسان أيضًا في أولى مراحل نموه، وهناك عوامل أخرى مشتركة بين الحكاية الشعبية وأدب الأطفال، من أهمها: أن الحكاية الشعبية تخاطب العقل الباطن لدى الإنسان، وهذا ما يسعى إليه أدب الأطفال إذ يحاول دائمًا أن ينفذ إلى عقل الطفل الباطن، ويخلص الطفل ويحرره من ضغوطاته الداخلية التي يصعب عليه التخلص منها بسبب مرحلته العمرية، كما أن الخوارق التي تعدُّ من مُكوِّنات الحكاية الشعبية تجذب الأطفال؛ لما يجدون فيها من تعبير عن طموحاتهم وأحلامهم؛ خاصة وأنها تنفذ إلى أعماقهم وعقلهم الباطن لتلعب دورًا فاعلًا في إثارة ما يخزنه في هذا العقل" [٤].

وذلك لأن "الحكايات الشعبية تعطى للأديب مجالًا خصبًا من مجالات توظيف عناصرها في بناء فني جديد يتوافق مع القدرات الإدراكية للأطفال، كما تعتمد الحكايات الشعبية على قدرة راويتها على تركيب حكايات جديدة من عناصر حكايات قديمة أو سابقة في شكل متناسق مترابط العناصر، وفى بناء فني كامل التكوين، وإن إمكانية تكوين حكايات جديدة تعتمد أساسًا على مهارة الأديب في القدرة على تركيب حكايات جديدة للأطفال تتوافق فيها عناصر الحاضر في سياق فني لا يغفل رؤية المستقبل، وفي بناء فني يعي المَلَكات الفنية والقدرات الإدراكية للأطفال"[٥]، ولأن الحكاية الشعبية لديها القدرة الكبيرة على جذب الطفل إلى ما تحتويه من مادة ومضمون فإن علماء التربية قد اهتموا بها ولذلك؛ فإن التقدم الذي أحرزه المُربُّون المتخصصون إنما اعتمد في المقام الأول على انتخاب الحكايات الشعبية، واستغلالها وتشذيبها، وأقبل العلماء عليها يعدونها لمراحل الطفولة لأشكال التعبير المختلفة، ومن أهم وأفضل هذه الأشكال قصص الأطفال باعتبارها الأقرب إلى عقل وخيال ووجدان الطفل.

"ويُعدُّ رافد الحكايات التي تراكمت عبر السنين عن الأنبياء والأولياء، من أهم الروافد التي تغذي الحكايات الشعبية المعاصرة بحيث أن هذا النوع من الحكايات أصبح يمثل نمطًا مستقلًا من الحكايات ذات الطابَع الديني والأخلاقي، وليس الحرص على رواية حكايات هذا النمط تسجيلًا لمعجزات الأنبياء والأولياء بقدر اتخاذ وسيلة لبَثِّ القيم الأخلاقية الثابتة التي يخاف أن تُنسى في زحمة المتغيرات الحادة التي أصبحت تهدد المجتمعات ذات الحضارات العريقة" [٦] ويستلهمها كُتاب الأطفال لصياغة قصص تتخذ المنحى الديني والأخلاقي؛ كى تُسْهم في تنشأة الطفل تنشأة دينية سليمة.

- الحكايات الشعبية والقيم الإيجابية:

الحكايات الشعبية غنية بقيم الشجاعة والإقدام ونُصرة الحق. تقول الدكتورة فاطمة القليني: "إن الحكاية الشعبية تخلق لدى الأطفال ارتباطًا بتاريخ الوطن وأحداثه وقيَمه الأساسية، هذا إلى جانب أنها تساعد الصغار على استيعاب قيم الشجاعة والفداء والتضحية من أجل الآخرين، وتبعدهم عن القيم السلبية المضادة؛ لذلك فهو الأمر الذي يجعل منهم مواطنين قادرين على المشاركة الإيجابية الواعية"[٧]، بالإضافة إلى أنها "تُثري تلك الأعماق الروحانية والوجدانية لديهم، والتي تنبع منها المُثل والأماني، إن الملايين من الأرواح البشرية، تتشرب عناصر هذه الحكايات، خلال مراحل تكوُّنها وتساعد على خلق الاتجاهات التي تؤثر على شخصياتهم بشكل عام".

ويقول الدكتور حسن شحاتة: "إن حكي القصة للأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة تساعد في توسيع خيال الطفل وتربي وجدانه، وتنمي ذاكرته وتعوِّده الانتباه الذي يُعينه على حسن الفهم وتحصيل المعرفة؛ حيث إن الانتباه أول خطوة من خطوات التفكير العلمي، كما أنها تطبعه على حسن الاستماع، وحسن الاستماع أساس الفهم، وحسن الفهم أساس لحسن الكلام والتعبير عما يجول في النفس من الإحساس والأفكار، كما أن الحكاية وقصتها تساعد في استمالة الطفل إلى التعليم وتحببه في الاطِّلاع والقراءة فيما بعد، وتزيد من خبراته، وتنمي معارفه العامة، وتساعده في حل مشكلاته، كما أن فيها متعة وتسلية للطفل، بما تشتمل عليه من جمال الفكرة، وروعة الخيال، وحُسن العرض والأداء"[٨].

ومن هذه الاتجاهات ما تؤكده هذه الحكايات من خلال أبطالها، بأنه لا مفرَّ من الكفاح وبذل الجهد لحل مشاكل الحياة، فعادة ما تضع الطفل في مواجهة المشكلات الأساسية للإنسان، الخوف من الموت، رهبة الحياة، والخوف من الشيخوخة، والعجز، والخوف من المجهول، ومن الانفصال عن الأبوين أو أحدهما؛ خاصة الأمر، كل هذه المخاوف تقدمها الحكايات للطفل وتضع له الحلول فيتجاوزها، ويتجنبها، وتزرع هذه الحلول داخله الأمل في حياة سعيدة"[٩].

"هناك أيضًا الوظيفة الاجتماعية للحكاية الشعبية، فالإنسان منذ أن هبط على سطح الأرض وهو يتمنى حياة يسودها العدل والحب، ومن هنا جاء الأدب الشعبي والحكاية الشعبية جاءت تستطلع – من خلال العقلية الإنسانية الشعبية المبدعة – الإجابة على تساؤل الإنسان عن كيفية تحقيق هذه الحياة، وإن عجز الإنسان عن تحقيقها في الواقع فلماذا لا يحققها في الخيال؟. ويتم ذلك في حدود منطق الحكاية الشعبية الخاضع للتأويل، فالحُلْم ليس إذن ثورة على الواقع بقدر ما

هو محاولة تغييره إلى الأفضل، وفي حدود ما كتب على الإنسان، وأيضًا في حدود قواعد دستور الشعب الذي يعطى كل ذي حقٍّ حقَّه في الحكاية الشعبية، ويجازي كل من يخطئ"[١٠].

- القيم السلبية في الحكايات الشعبية:

"إن رصدًا دقيقًا لمكامن الخطورة في الأساطير وجُلِّ الحكايات إن لم يكن كلها – تحديدًا عندما تقدمها للأطفال – يجعلنا نشير بأصابعنا إلى الإغراق في القدَريَّة والقسمة والنصيب وأفعال الزمن ومكائده، والهروب من المسؤلية، ونزعة التبرير، ورد الأمور إلى إرادات مستترة، والاندفاع والطيش عندما يكون التروي والحذر ضروريين، والجبن والتواكل عندما تدق ساعة الجد، والتقليد، والتقيد والقوالب، والشكليات الجاهزة، والإيمان بالخوارق، والحماس اللفظي، وإيمان بالمشعوزين والدجالين، والمعتقدات الشعبية القديمة، ظاهرة العين والتشاؤم... إلخ.

لنأخذ حكاية "علي بابا" مثلًا على بعض الحكايات الشعبية التي تحمل قيمًا سلبية تؤثر على الأطفال، حيث نجد في القصة التي أعدها "كامل كيلاني" أن "علي بابا" يسرق اللصوص، وهو منطق الحكاية الشعبية في "ألف ليلة وليلة"، ولكن منطق الأطفال يجعلهم يتساءلون عمَّا إذا كان من الجائز سرقة اللص، فالقانون يعاقب الشخص الذي يلجأ إلى السرقة، ليسترد حقًا له، فكيف و"علي بابا" يسرق ما لا ليس له؟!.. وفى مكانٍ آخر من القصة نجد "مرجانة"، خادمة "علي بابا" تملأ وعاءً كبيرًا بالزيت، وتضعه على النار حتى يشتد غليانه، ثم تفتح كل خابية وتصبُّ فيها شيئًا من الزيت، حتى قتلت اللصوص جميعا أشنع قتلة، وهو ما تقوله الحكاية الشعبية أيضًا، وهنا يمكن للقارئ الصغير أن يتساءل، عما إذا كان يمكن للمسروق أن يقتل السارق، في حين أن التشريع لا يسمح بذلك إلا في حالة الدفاع عن النفس [١١].

وهناك آراء كثيرة تقوم على رفض تلك الأساطير والحكايات الشعبية بما تحمل من جوانب سلبية قد تؤثر على سلوك الطفل على المدى الطويل، "ومن المعلوم أن الرفض لا يطال الأساطير والحكايات الشعبية وغيرها من أنواع الأدب الشعبى لذاتها. ولا ينتقص من قيمتها التاريخية والمعرفية بوجه من الوجوه، إنما الأمر يتصل بتعاطي الطفل معها، والتعامل معها بقداسة، أو على أقل تقدير كمُسلَّمات اجتماعية، بل إن الواجب يقتضي – الدعوة إلى الاهتمام بكل الأساطير والموروثات الشعبية من خلال جمعها وتنقيحها ودراستها وتعميقها، باعتباره إرثًا قوميًا وتاريخيًا لا غنًى عنه [١٢].

الخلاصة:

بناء على ما سبق عرضه فإن الحكايات الشعبية مليئة بالقيم الإيجابية، هذه القيم التي يحرص عليها المجتمع بشتى شرائحه، بل ويتمسك بها باعتبارها قيمة أخلاقية عظمى، وتحرص الأسرة والمدرسة على أن تربي الطفل على هذه القيم وتزرعها بداخله؛ حتى تتحول إلى سلوك يومي حميد يُسهم في الارتقاء بالمجتمع.

هذه القيم الإيجابية المتمثلة في الصدق، والأمانة، والتسامح، والمحبة، بالإضافة إلى قيم الشجاعة، والإقدام، والتضحية في سبيل الأرض والوطن.

وتمتلئ أيضًا هذه الحكايات الشعبية بالكثير من القيَم السلبية التي تحتاج منَّا، نحن كُتاب الأطفال الذين نتناول هذه الحكايات ونحولها إلى قصص للأطفال، أن ننقي هذه الحكايات من الشوائب، والأفكار البالية والتي لا تتناسب مع أخلاقياتنا، وعاداتنا، وتقاليدنا المجتمعية، ومعتقداتنا الدينية، ونهذبها، ونضيف إليها الخيال الذي يضفي عليها جمالًا وروعة.

هامش:

(١) أحمد توفيق – كتاب الحواديت – موسوعة حكايات الطفل في مصر – الجزء الأول – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠١٣، ص٩.

(٢) أحمد محمد عبد الرحيم – دور الحكاية الشعبية في تنشئة الطفل – المهرجان الثاني لفنون طفل الصعيد – الهيئة العامة لقصور الثقافة – إقليم وسط وجنوب الصعيد – فرع ثقافة المنيا – ٢٠٠١، ص١٢١.

(٣) صفوت كمال: مدخل لدراسة الفلكلور الكويتي (ط٣) (وزارة الإعلام – الكويت ١٩٨٢)، ص ١٨٥.

(٤) سارة السهيل – أدب الطفل والتراث – مجلة أدب الأطفال دراسات وبحوث – دار الكتب والوثائق القومية – العدد الخامس – أغسطس ٢٠١٢، ص١٣٢، ١٣٣.

(٥) صفوت كمال: التراث الشعبي وثقافة الطفل، المركز القومي لثقافة الطفل، القاهرة، ١٩٨٨، ص٢١.

(٦) نبيلة إبراهيم – مقدمة – حكايات شعبية مصرية – الدراسات الشعبية – الهيئة العامة لقصور الثقافة – ١١٥– ٢٠٠٧، ص٢٠.

(٧) أحمد محمد عبد الرحيم – دور الحكاية الشعبية في تنشئة الطفل – مرجع سابق، ص١٣٢.

(٨) عبده الزراع – دور الحكاية الشعبية في تربية وتعليم الطفل – أدب الطفل وثقافته.. دراسات وبحوث – دار السعيد للنشر والتوزيع – ٢٠١٩، ص٥٦.

(٩) كمال الدين حسين – الجوانب التربوية في الحكايات الخرافية، دراسة حول التراث الشعبي ودوره في تربية الطفل– المهرجان الثاني لفنون طفل الصعيد – الهيئة العامة لقصور الثقافة – إقليم وسط وجنوب الصعيد – فرع ثقافة المنيا، ٢٠٠١، ص ٣٩٧، ٣٩٨.

(١٠) كمال الدين حسين– الفنتازيا وحكايات الخوارق، دراسة عن أوجه الشبه والاختلاف– دار الكتب والوثائق القومية، الادارة المركزية للمراكز العلمية، مركز توثيق وبحوث أدب الأطفال– ٢٠١٢، ص٢٣

(١١) عبده الزراع– دور الحكاية الشعبية في تربية وتعليم الطفل– مصدر سابق، ص٥٥

(١٢) نفس المرجع السابق– ص٥٦.